

مقدمة

بفلم الأستاذ الدكتور منصور فهمي

ألف الكتاب إذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب أن يضمنوها بعض ما يحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمات المسائل ، وحسناً يفعلون ؛ فإن مقدمات الكتب هي مداخلة التي تهيه القارئ إلى ما سيقراً ، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف المعاني وشتى الصور . على أنني تهيت أن أضع مقدمة لقصة رفايل عندما تكرم أخى الأستاذ الزيات بدعوتي إلى ذلك ، لأنى خشيت إن أنا نحوت فى هذا الكتاب منحى الكتاب فصغرت صورته ولخصت فكرته أن أكون قد شوهت شيئاً من جماله وأنقصت كثيراً من كماله . لأن قصة رفايل جمال حى وأدب راق وفن صاف ، وهيات أن ينقل المرء إلى القارىء صورة من صور الجمال الحى ! وهل تستطيع ريشة المصور مهما آتاها الله من الرقة والدقة أن تنقل صورة صحيحة لحسنه لابس الجمال معناها ومبناها ؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مهما نال من حسن الصياغة وقوه البلاغة أن يلخص كتاباً فنياً من كتب الأدب ، ويبسط للناس ما فيه من روعة وحسن ؟ إن من حاول ذلك شق عليه الأمر والتوت به السبيل . إن خير ما أنصح به لمن يريد أن يتمتع نفسه بأثر الجمال الحى أن أغريه برؤية ذلك الجمال حياً . وخير ما ينتصح به من يريد أن يتذوق الأدب أن يقرأ ما كتب الأديب . وعلى ذلك ينبغى أن يقرأ هذا الكتاب من فاتحته إلى خاتمته .

على أنني فضلاً عن تهيبى تلخيص ما فى الكتاب تخرجت أن أدفع بقلمى فى ميدان ليس من فرسانه ، فإن الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن تعريب

أديب كبير ، وجدير بقلبي أن يدع مضمار الأدب للأدباء ، ويترك مجال البلاغة للبلغاء . ولكن حرصى على إجابة الصديق سهل على ما استصعبت ، وهدى قلبي إلى ما أحببت ، فبدأ لى أن أقتطف من الكتاب بعض زهراته لأجعلها دليلاً على ما فيه من سمو البيان ورقة الأدب . ولكن اقتطاف شيء منه ليس باليسير الهين ، فإن كل ما يقع عليه نظر القارىء لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، أو انسجام حسن ، فكيف لا يحار الإنسان إذا أراد أن يتخير شيئاً دون شيء ؟ وكيف يترك قطعة فيها عظمة الفكرة إلى أخرى فيها سحر البيان ؟ ففى الكتاب ماشئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكر وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيقى وحلاوة الإيمان وطهارة الحب . وسترى فى كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادقاً على كل ذلك . على أن أضوأ نواحي الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب إلى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون فى الوجود إلا الحقائق المادية أن ذلك الحب العذرى النقي هو اختلاق شاعر أو تصوير مصور ، وينسى هؤلاء أن من خير وظائف الكتاب والفنانين أن يستنزلوا من السماء إلى الأرض عالماً وسطاً بين عالم الكمال الذى تحن إليه النفس وتنزع إليه الإنسانية ، وأن هذا العالم السماوى الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة إلى حقائق أصفى ، وأن ما يبدو من الأمور للناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، حتى إذا ما بلغوه أصبح حقيقة من وجودهم وجزءاً آمن سلوكهم وأخلاقهم . ألم تكن تلك الحقائق الخلقية من شفقة على المظلوم ، وامتهان للرق ، واحترام لحقوق الإنسان ، خيالات الشعراء فى العصر الغابر فأصبحت

اليوم حقائق أو شبه حقائق ؟ إن المثل العليا من القول والفعل لتسمو
بالإنسان من الأرض إلى السماء .

وشىء آخر فى الكتاب أعلى وأجل : ذلك هو الوصف بنوعيه الحسى
والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مخصبتين ظهرتا
على أشد ماتكونان فى عصر النهضة الغربية ، وأمدتا بوحيهما وهديهما حركة
المدنية . فالأولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة إلى سبر أغوار النفس
ليبتينوا ما فى عالمها من معان ، ويصفوا ما فى ساحتها من مشاهد .

وقدما تناولت الرقاب إلى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها القدسى ،
وجابت صحراواته طوائف الفلاسفة وفئات المتصوفين ، فإذا عاد إلينا أحدهم
بنبأ لا نستخلص منه إلا أن فى هذا العالم ما يدهش وما يحير . لذلك
تلجلجت السنة المحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتصوفة وأضرابهم
رموزاً وتمتمة أشبه برقى المشعوذين والسحرة . وذلك لأن أكثر شؤون
النفس مستغلق لا تجد العبارات إلى تصوير معانيه سيلا . ودام ذلك الأمر
حتى قيض الله للناس رجالا من عصر النهضة جلوا بالسنتهم تلك الشؤون ،
ووصفوا بأقلامهم تلك الحالات ، وصرفوا عنايتهم إلى تجريد المعنويات ،
فكسب ذلك لغات الغربيين عنصراً جديداً قواها ونماها ، لأن الكاتب
الذى يغوص فى أعماق نفسه ليتصيد المعانى صافية جليلة لا يلبث أن يعود
إلى القراء بدرر من الألفاظ ، ولا تلبث تلك الألفاظ البرية أن تندس
فى أنسجة اللغة فتزداد نماء وجلاء وقوة . أما النزعة الثانية فهى امتداد
العقل إلى معرفة الموجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجى .
والوجود الخارجى هو هذه الأشياء المحيطة بنا ، وإن عالمها ليضيق بضيق .

علم الإنسان بمميزاته ، وضآلة فهمه لصفاته ، وقصور نظره عن استطلاع
جہاته ، ولكنه يجمل ويتسع بمقدار إحصاء المرء لشؤونہ ، وتناول بيانه
لهذه العبارات التي بمقدار وفرتها تنبئ أن الإنسان على قلته قد اتصل بالكثير ،
وعلى ضعفه قد جابه هذا الكون العسير ، فصاغ للموجودات المسميات ،
وعرف منها ما كان نكرة لديه ، ووسم بالفاظه وأسمائه من مظاهرها ما كان
خفياً عليه . ولا شك أنه بقدر ما يبلغ الإنسان من معرفة هذين العالمين ،
وبقدر ما يتقصى النظر في مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه ويرقى بيانه .
وفي الكتب المقدسة أن الله لما سوى آدم عليه الأسماء كلها . ولعل أبا البشر
بلغ بتوفيق ربه درجة من العلم لا يفوقها إلا علم الله . وذلك لأن معرفته
لجہات النفس وعلمه بأسمائها إذا أضيف إليها أسماء الموجودات الخارجية
ومعرفتها كان ذلك كمال العلم . وفضل الله يؤتيه من يشاء .

فكان الأستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التي استمدّها كاتبها
من جمال الطبيعة وجلال الإيمان وشرف العاطفة قد حرص على أن يقرئنا
صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم الغيب والشهادة ، أو من عالم المعنى
وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . وأى خدمة
أعظم من أن يعين الإنسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل
الشعور ورقته ؟

* * *

إن الأوائل من العرب لم يغفلوا بعض الأوصاف فوصفوا الإبل
وسيرها والخيول وكرّها ، ووصفوا أساليب القتال من مجاولة ومصاولة ،
ومناظر الطبيعة من سحاب وهضاب وبر وبحر ، ووصفوا الخمر ومزجوا

بين بعض الأوصاف ، وألموا أحياناً بوصف حالات النفس من هيام وغرام ، أو زهادة وإتهال ؛ ولكن هذه الأوصاف التي توخوها لم تكن إلا جزءاً صغيراً علموا به القليل من حالات النفس ، وقدرأ يسيراً كشفوه من مساحة هذا الكون الخارجى . فبعد مضى عصرهم امتدت معارف الإنسان إلى أرض غير هاتيك الأراضى ، وإلى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الإنسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورقة ، وأصبحت الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، والنفس غير النفس . فإذا نقل إلينا الناقلون كتاباً حديثاً يتضمن أوصافاً لأرض غير اتى ذكرها العرب ، ويحتوى مشاعر غير التى أحسها العرب ، فإنهم بمعلم هذا يمدون فى لغتنا سبباً ، ويضيفون إلى زهراتها زهوراً ، وإلى نغماتها ألحاناً ، وإلى حياتها حياة .

إن رفائيل أثر من آثار هذا العصر الحديث ، وثمره من ثمار هذا الزمن المتأخر ، وهو آية من آيات فنه ، وإلهام نابغ من نوابغه ، قد اشتمل على التصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب . فلما تبينت أن لغتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت ضجة قامت حديثاً بين جماعة من أدبائنا يذهب بعضهم إلى أن اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب فى تسمية الأشياء وتصوير المعانى . ويذهب البعض الآخر إلى أن العربية قد وسعت المعانى كلها ، وتناولت جميع الأغراض من ذوات وأعراض . ويبدو لى أن الفريق الأول قد أحاطوا بالكثير مما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولكنهم ألموا بالقليل مما احتوته اللغة العربية من العبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا أنها لا تطاول اللغات

الأخرى ، فأثّموا في بعض هذا الظن ، ويئسوا من أن تحقق العربية ما يجيش في صدورهم من المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى المخترعات . وكأن هذا الفريق فيما يراه في أمر اللغة لا يخلو بعضه من غير صادقة عليها ، ورغبة محمودة في إعلاء منارها ، وبعضه عن افتتان بأدب الغرب فتنه عن لغته وأدبه ؛ وبعضه من جهل بما في العربية من ثروة وقوة وعظمة ، ومن جهل شيئاً عااده . أما الجماعة الذين أفرطوا في الوثوق بخصائص اللغة العربية وحسبوا أنها قاربت كمالها ، وكادوا يقولون فيها ليس في الإمكان أبدع مما كان ، فإن أكثرهم لم ينل حظاً من العلم بما في آداب الأمم ، وفاته أن فضل الله لم يكن ليتركز في إنسان ، ولا يجبس على مكان دون مكان . ولعل أشد ما ورط هؤلاء الجماعة في هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الأثر في حفظ مشخصات الأمم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون إلى خمود ذميم . وعندى أن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا أنهم يقاتلون في غير عدو ، وأن ضجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست إلا نفوس الناس تتحرك فتجرى ألفاظاً على اللسان ، وتعاير في الأذهان ، عند ما تدفعها الدوافع والحاجات ، وتهزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته وتطربها نغماته . فلو أن نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم أموره ، ووسعت مراميه ، واحتالت إلى ذلك بأنواع النحت والاشتقاق ، وبعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول .

وخير برهان على ذلك أن قصة رفايل التي نحن بصددها يقرأها الإنسان

عربية صحيحة على أسلوب العرب ، وبيان العرب ، وفيها رخامة الحانهم ورنات أوتارهم ، وهي تحمل إلينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة بلغة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم . أو يقول المتطرفون بعد ذلك أن اللغة جامدة ؟ أو يقول الجامدون بعد ذلك أن نفوسنا لا تتأثر بما تنقله إلينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه في تصوير الوجود ؟

* * *

بقى على أن أقول كلمة في رفايل من جهة الترجمة والتعريب . وتوطئة لذلك أثبت هنا ما نقله البستاني في مقدمة الألياذة عن العامل عن الصلاح الصفدى قال :

« وللترجمة في النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصى وغيرهما . وهو أن ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتى الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيشبهتها وينتقل الى أخرى كذلك حتى يأتى على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما انه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية : ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثانى ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائما ، وايضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

الطريق الثانى في التعريب طريق حنين بن اسحاق والجوهري وغيرهما : وهو أن يأتى بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بحانة تطابقها سواء ساءت الالفاظ أم خالفتها . وهذا الطريق أجود . ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لانه لم يكن قيما بها . بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والالهى فان الذى حربه منها لم يحتج الى اصلاح » .

ثم قال البستاني بعد ذلك : « وإن هذين الطريقتين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما في النقل

حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح ، .

وعندى أن الترجمة فن من أدق الفنون ينم عما للترجم من سلامة الذوق وبراعة القدرة ولا سيما في الترجمة الأدبية . وذلك لأن اللفظ الواحد في لغة من اللغات قد يقابله لفظان أو ثلاثة في اللغة المترجم إليها ، وقد يحصل أن اللغة المنقول إليها ليس فيها من الألفاظ ما يعبر عن معنى يحمله لفظ واحد في لغة أخرى . وفي هذه الظروف تظهر قوة المترجم وبراعته وفنه . إذ تراه يتخير من الألفاظ الكثيرة لفظاً دون آخر ، إما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المعنى ، وإما لأنه فضلاً عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، ويؤخر جملة تقدمت ، ويؤخر أخرى تأخرت ، دون أن يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى .

ولقد وجدت في ترجمة رفايل أن الأخ شكر الله له جهوده جمع في منهاجه في الترجمة فضائل الأساليب جميعاً . فلم يفرط في نظام الكلمات إذا سلم المعنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما في أسلوب ابن البطريق والحمصى ، ولم يفرط في معنى إذا لزم الأمر لتفريط في مبنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما جاءت به طريقة حنين والجوهري . وبين تزويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللغتين المنقول إليها والمنقول عنها ، فتخير الألفاظ وصقل الأسلوب وأدى الأمانة بما يقتضيه الدقة والإيجاز . والخلاصة أن الأستاذ الزيات كان فناناً في نقله ، أميناً في فنه ، موفقاً في عمله .

على أننى كنت أؤثر أن يلتزم النقل عن نسخة واحدة بعينها ، فإن تفاوت الطبعات أدى لامرتين إلى شيء من الزيادة والنقص في بعض

مواضع الكتاب . ولذلك جاء بعضه منقولاً عن نسخة والبعض عن أخرى ، وبين الأصلين تفاوت يقتضى لمن يريد أن يراجع الترجمة أن يعالجها من نسختين وفي ذلك ما فيه من مشقة . على أن عدم الحرص على نسخة واحدة لم يخرج المترجم الفاضل أبداً في مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول المؤلف وعمله ولم يكن فيما لم يحرص عليه مقترباً صغيرة ولا كبيرة (١) .

أسأل الله للأخ الكريم أن يوفقه في عمله ، ويمد في أجله ، لينقل إلينا كثيراً من هذه الروائع الأدبية ، فإن الله قد خصه بما لم يخص به الكثيرين من النقلة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة وفصيحها ما لم يؤته الكثير من متعاطيها ، فلا يسعني إلا أن أرجوه أن ينقل إلينا الكثير والكثير ، فإنما ينقل بذلك لغتنا العربية إلى خطوات في سبيل تقدمها فضلاً عما يغذى به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه الثمرات الشهية ، والزهرات العطرية ، التي تفتحت في رياض الغرب فكان لكل قطر من شذاها نصيب .

منصور فهمي

(١) رأى لامتري بعد الطبعة الأولى لرفائيل إن ، بعض الجمل شيئاً من المبالغة أو بعضاً من الحدة فتناولها بالحذف في الطبعة التالية ثم غير في تقسيم الفصول . وكان أمامي سبعة الترجمات هاتان الطبعتان ، فكنت أوافق مرة وأخالفه أخرى ابتغاء الجمع بين فضيلتي النسمتين . فإذا قوبلت الترجمة على أحدهما دون الأخرى ظهر في بعض المواضع منها اختلاف يكو في النسخة الأخرى اتفاقاً ولا شك . (المترجم)